المحاضرة الخامسة: النظام السياسي في حضارة بلاد الرافدين (من دويلات المدن إلى الدولة الموحدة).

أولا. جغرافية بلاد الرافدين:

يضم العراق القديم الأراضي الممتدة من هضبة أرمينيا في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب ومن الفرات غربا حتى ما وراء دجلة شـــرقا، وبهذا فهو يقع ما بين زاغروس والهضـــبة الإيرانية شـــرقًا والصحراء السومرية غربًا، وبين جبال أرمينيا شمالا إلى الخليج العربي جنوبا.

أطلق الإغريق على بلاد الرافدين اسـم ميزوبوتامية Mesopotamia أي البلاد ما بين النهرين، لكن هذه التسمية غير شاملة لأن حضارة العراق القديم تشمل أكثر من ما بين النهرين ولهذا أطلقوا عليها لاحقًا اسم باروبوتاميا Paropotamia أي بلاد ما حول النهرين والأصـح هو أن نسـميها حضـارة بلاد الرافدين أو حضارة العراق القديم، أما عن مصطلح العراق فالأرجح أنه لقب أطلقه الفرس على العراق حيث استخدموا لفظ السواد، ولهذا المصطلح دلالة على السهل الرسوبي في العراق وبسبب كثرة المزروعات.

وتنقسم أراضي العراق القديم إلى قسمين:

- القسـم الشـمالي: من هضـبة أرمينيا شـمالا إلى التقاء دجلة والفرات جنوبًا وينحصـر بين الهضبة الإيرانية شرقا وطوروس غرباً، من أهم مدنه آشور و أكاد وتنحصر الزراعة فيه على ضـفاف الأنهار سـواء دجلة أو الفرات أو بالخ والخابور أو في سـفوح جبال أرمينيا حيث تكثر المجاري
- القســم الجنوبي: يعتبر القســم الجنوبي حديث التكوين من الناحية الجيولوجية، حيث كان هذا الجزء جزءًا من الخليج العربي ثم غمرته الرواســـب التي جاد بها نهر دجلة والفرات، ويمكن تحديد هذا القسم من بغداد إلى الخليج العربي جنوبًا.

واسـتوطن هذا الجزء من بلاد الرافدين كلاً من السـومريين والاكاديين ثم البابليين اذ احتلت سـومر أقصى جنوب العراق وظهرت بهذه المنطقة العديد من المدن كأريدو، لارسا، أوروك، أور، لاغاش.

ثانيا. سكان العراق القديم:

تعرض العراق القديم منذ القدم إلى ظاهرة التحركات البشرية سواء من الشرق (الهند والصـين) أو من شـــبه الجزيرة العربية، نتيجة النمو الديمغرافي، والبحث عن مراكز صـــالحة للحياة (والعراق جزء من الهلال الخصـــيب) إضـــافة إلى الموقع الجغرافي بين قارات العالم آنذاك الذي جعل العراق في طريق الرحلات البشرية من الشرق إلى الغرب خاصة.

تشـير الدلائل الأثرية أن السـومريين هم أقدم شـعب هاجر إلى العراق القديم وكون أقدم حضـارة عراقية (حضـارة منطقة العبيد حوالي 4000 سـنة ق.م، ثم جاءت أسـاطير الخلق حيث اسـتوطنوا منطقة سومر أو "شومر" ما بين الفرات ودجلة ومن بغداد إلى الخليج).

أما عن موطن السومريين الأصلي فيختلف المؤرخون باختلاف الأساطير فهناك من يرجع أصلهم إلى إيران، أو من فلسطين بعد أن وصلوها من شمال إفريقيا أو من القوقاز شمالا، وهناك رأي آخر يربط مجيئهم عبر الخليج العربي عبر ربط أصـلهم بالمظهر الديني ومقارنة بقايا سـفنهم بمعمري مصـر الفرعونية، ومن أهم المدن السومرية نذكر: أور، كيش، لارصا، أوروك، أريدو...

بعد السومريين هاجر العنصر الأكادي السامي من شبه الجزيرة العربية إلى العراق حوالي القرن 28 ق.م، حيث تمكنوا من السيطرة على بعض المدن السومرية، ثم استقروا وسط العراق وأسسوا مدينة أكاد (أجاد) ومنها أخذوا تسميتهم، مع العلم أنهم ظلوا خاضعين للسومريين حتى ظهور سرجون الأكدي في مدين كيش.

وحوالي 2000 ق.م الميلاد، جاءت الهجرة السامية الثانية من شبه الجزيرة العربية منهم البابليين أو العموريين، وصادف وصولهم هجوم العيلاميين على العراق 1950 ق.م بسقوط أسرة أور الثالثة. تنافس العموريين والعيلاميين على حكم العراق، وظلوا في شتات إلى مجئ القائد البابلي حمورابي، وأشهر مدنهم مدينة بابل–باب الإله–البابليين، وأطلق عليهم السومريون اسم الأموريين أي سكان الغرب فكلمة ماريو السومرية تعني الغرب.

كما استوطن العراق القديم أيضا الآشوريون: وهم من الساميين أيضا الذين استوطنوا شمال شرق بلاد النهرين، في حوض دجلة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد وينسبون إلى مدينة آشور الاستراتيجية لتحكمها في الطرق التجارية بين سومر وأكاد من جهة وبين العراق وشمال كردستان....

إضـافة إلى إلى هذه الهجرات المتعاقبة إلى العراق القديم عرفت بلاد الرافدين تواجد أجناس وسلالات أخرى نذكر منها:

الجويتيين: أقوام جبلية سكنت العراق من ناحية الشمال جبال زاغروس وبرزوا في عصر سرجون الأكدي الذي تكمن من دحرهم في حوالي 2350 ق.م

الكاشيون: هم أيضا أقوام سكنت جبال زاغروس قبل غزوهم لبلاد الرافدين واسمهم مشتق من اسم إلههم القومي "كشو" حيث تمكنوا من الوصول إلى بابل والاستقرار بها في مراحلها الأخيرة.

الكلدانيون: الكلدُ: ينتسب هؤلاء إلى قبيلة "كلداي" الآرامية، التي خرجت من شبه الجزيرة العربية حوالي 1500 ق.م استقروا بسوريا قبل انتقالهم إلى العراق حوالي 700 ق.م حيث استوطنوا قرب بابل ثم استولوا على جنوب العراق القديم، وتركوا شماله للميديين نظير تحالفهم معهم ضد الآشوريين ومن أشهر ملوكهم نبوخذ نصر.

ثالثا. مظاهر حضارة العراق القديم:

1 – النظام السياسي:

إن النظام السياسي الذي ساد العراق القديم قائم على نظام دولة المدينة الذي يقصد به وجود مدينة لها استقلالها التام في شتى رموزها، وفي أحسن الحالات تكون هناك مدينة كبيرة تتبعها عدد من المدن الصغيرة والقرى فتشكل دويلة، تكون قائمة بذاتها ومستقلة عن باقي الدويلات الأخرى، فكل واحدة من هذه الدول لها نظامها وتقاليدها وقوانينها وسلالتها الحاكمة.

وقد يعود هذا لأن الإنسان العراقي اعتبر تأسيس المدينة بأمر من الآلهة، حيث فالمدينة ما هي إلا مقر للإله ومركز لعبادته، وحسب الأساطير العراقية فإن العالم مجرد مزرعة كبيرة يملكها ويديرها إله المدينة الذي تصدر عنه الأوامر المهمة وأن خلق الإنسان هو فقط لإراحة الآلهة من العمل في المزرعة.

أما عن طبيعة النظام السياسي في هذه الدويلات فهو النظام الملكي المنزل من الآلهة وفق ما يسمى بالفويض الإلهي، إذ ربط العراقيون القدامى نشأة نظام الملكية بالقوة الإلهية ويتضح ذلك في وثيقة قائمة الملوك السومريين التي تنص على نزول الملكية من السماء، حيث فوضت الآلهة الملوك بأن يكونوا رعاة للبشر بالنيابة عنهم، هؤلاء البشر الذين خلقوا في الواقع لخدمة الآلهة. فإيمان العراقيون بنزول الملكية دون الملك يعني أنهم لم ينظروا لحكامهم كإلهة بل إن الملكية العراقية هي أن ينوب عن الإله، وهذا الأخير هو سيد المدينة الحقيقي ولذلك كان الملك لا يقوم بأي نشاط إلا بعد استشارة الآلهة.

وبهذا اعتمد الملك في تسيير البلاد على التفويض الإلهي أي أنه الوسيط بين الإله والرعية لذلك على الناس طاعته فهو يمثل الكاهن الأعظم للمدينة وهو يدير أموال المعبد ومسؤول أمام الآلهة إذا لم يحقق الخير والعدل، مع العلم أن نظام الحكم لم يكن دكتاتوريا بل كان ديمقراطيا، فإلى جانب الملك نجد مجلس الشيوخ ومجلس المحاربين، وكانت وظيفة هذه المجالس هي: إعلان الحرب، فرض الضرائب، تعيين الحاكم.

وعليه فبداية الديمقراطية كانت مع السومريين ولكنها لم تتطور وتستمر عكس الإغريق وحل محلها حكم الفرد، فمع اتساع المدن وبروز الملوك الأقوياء، وبعد أن تمكن سرجون الأكدي من القضاء على السومريين حل حكم الفرد ونظام الدولة الموحدة محل حكم الجماعة (المجلس أو الجمعية) لأن هذه الأخيرة

لم يكن من السهل أن تتوصل إلى قرارات بسرعة في حالة الطوارئ، مثل وقوع فيضان، أو انتشار وباء، أو توقع هجوم. ولأن الأمر يستلزم إجراءات سريعة، فاختير شخص منتخب من الشعب وتوفرت فيه القوة والقدرة على معالجة مثل هذه الحالات، وأصبح هو "الملك"، وبمرور الزمن عمل هذا الشخص على تقليص نفوذ الجمعية السابقة الذكر خاصة بعد انتصاره على الأعداء أو معالجة الأوضاع الصعبة، وبهذا أصبح هذا الشخص الملك هو الحاكم أو الملك المطلق ولديه سلطات واسعة خاصة أنه اعتمد على التفويض الإلهي، فهو يمارس السلطة نيابة عن الإله وأطلق عليه اسم لوكال "لوجال" التي تعني بالسومرية "الرجل العظيم"، وقد استطاع هذا الشخص أن يحد من نفوذ الكهنة إلا في الأمور الدينية وبهذا تحول النظام من الشبه ديمقراطي إلى ملكي ووراثي مطلق باستشارة الآلهة طبعا ثم يبايعه الشعب وخاصة إخوته حتى لا يعترض عليه، وبوفاة الملك يتم تزويج ولي العهد في المعبد الرئيسي بالمدينة بمباركة الآلهة، ويعتبر سرجون الأكدي هو أول وضع أسس نظام الدولة الموحدة، وتجلى هذا النظام أكثر مع حمورابي(البابلين)، أشور بانيبال(الآشوريين)، نبوخد نصر(الكلدانيين)، ويمكننا أن نوجز تاريخ النظام السياسي في بلاد الرافين فيما يلي:

- الحضارة السومرية (2800–2370ق.م) دويلات المدن.
- الحضارة الأكادية (2370–2230ق.م) من أهم ملوكها سرجون، نارام سين، ...
- عصر سلالة أور الثالثة (2111–2003ق.م) وحدت كل البلاد تحت سلطتها.
- الدولة البابلية ما قبل حمورابي (1894–1791ق.م)
- دولة بابل عصر حمورابي (1792–1750ق.م)
- شمش أداد العموري وتأسيس الدولة الآشورية في الشمال (1815–1792ق.م) وهو الملك الذي جاء خلال العصر الآشوري القديم (2530–2100ق.م)
- العصر الآشوري الأوسط (1500–911ق.م)
- العصر الآشوري الحديث (911–612ق.م)

2 – ألقاب صلاحيات الملك:

لقد كان الملك الكاهن الأعظم له الحق في تعيين الكهنة والإشراف على طريقة أداء الشعائر الدينية والطقوس والإشراف على أموال المعبد، كما أنه الحاكم الأعلى للدولة، فهو يمثلها أمام الدول ولدية الحق في تعيين السفراء، وعقد الاتفاقيات ويعتبر المشرع الوحيد في الدولة باعتباره ممثلا للآلهة مثل (حمورابي) كما أنه يتولى تعديل وتغيير القوانين حسب الظروف مثل (اوركاجينا) سنتطرق لهذا لاحقا.

لقد تدرجت ألقاب الملوك تبعا لتطور نظام الحكم واتســاعه ومن أكثر الألقاب في ذلك الوقت "الكاهن الأعظم" ثم أضيف "انسي" الذي يشير إلى رأس الحكومة المدنية عند السومريين ويعني بالسومرية "النائب أو الوكيل."

ثم ظهر مصطلح اخر يمثل وظيفة رئيسية وهو لوجال أو لوكال: وتعني الرجل العظيم ويعتقد أن هذا اللقب ظل فترة يميز الملك وكان يتبعه حكام المدن "انسي" ولما تمكن لوجال من توحيد غالبية جنوب العراق، اتخذ لقب جديد وهو "ملك البلاد" (لوجال كالما (Kalma بالسومرية وهذا يرمز للوحدة السياسية التي تمكن من تحقيقها هذا الملك، عندما وصل سرجون الأكادي للحكم احتفظ بلقب "لوجال" ثم أضاف اليه لقب "ملك الجهات الأربعة". الا ان هذا اللقب كان يطلق على الالهة مثل: انو، انليل، شمش، وهو رمز سلطتهم على الكون وبهذا اللقب أصبح لسلطة الملك مدلول ديني واتسع نظام الحكم من دولة المدينة الى مملكة كبرى ثم امبراطورية، أي ان هذا الشخص انتخبه الاله وفوضه لتمثيله في حكم الكون، ولكن في عصر الملك أورناموا ظل هذا الملك يلقب ملك سوم وأكاد، ولقب ملوك اشور بلقب انسي بعل، ثم لقب نفسه بـ"ملك الكل" وهو يقابل "ملك العالم" عند السومريين.

3 – **النظام الإداري:**

أولا: **في دويلات المدن:** كان المعبد هو المركز الرئيسي لإدارة البلاد والذي يشرف عليه الكاهن الأعظم الذي يستمد سلطته من الإدارة الإلهية وكان هذا الحاكم يعرف باسم "إن " EN ويعاونه عدد من الكهنة للإشراف على جميع أمور الدولة السياسية والاقتصادية والقضائية باستشارة الآلهة التي ينفذ أوامرها وينظر إليه على أنه القائد الأعلى للجيش وهو الذي يتخذ قرارات الحرب والسلم...وإضافة لكل هذا اختص الكاهن الأعظم بالنظام الإداري إلى جانب دوره الديني والعسكري. وفي عهد "لوجال" انفصلت السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية فأصبحت الإدارة الدينية من مهام الكاهن باسم "إن "EN واستقر بالمعبد لإدارة الشؤون الدينية وما يتصل بها من واجبات إدارية واقتصادية.

أما السلطة الدنيوية فقد عين لإدارتها مسؤول مدني يحمل لقب "انسي » ENSI كان يشرف على الزراعة والتجارة وما تتطلبه من مشاريع أي نفس سلطات EN دون الشؤون المتعلقة بالدين.

وفي عهد لوجال دائما كان مستقرا بمدينة أور ويسيطر على كل شيء والمدن الأخرى يسيرها- EN ENSIخاص وكلهم تابعي لأورو.

ثانيا: **النظام الإداري في الدولة الموحدة (الإمبراطورية)**

في هذه المرحلة أصبح النظام مركزيا، وتلك الدويلات ما هي إلا وحدات إدارية في الدولة الموحدة (عند المصريين أقاليم) وكانت تخضع لسلطة الملك الموحدة والإدارة المركزية التي أعطت الملك الحق في

التدخل والإشراف على كل الأمور ومراقبة "ولاته" الذين يشرفون على تطبيق توجيهاته وتعليماته، كما يقوم بتنفيذ المشاريع العامة، وإقامة العدل وحماية الضعفاء عبر إصدار قوانين (أورناموا، حمورابي) ...إضافة لإحلال الأمن وإعلان الحرب كما يتولى الأمور الدينية وإقامة الشعائر الدينية، ويعتمد الملك في إدارة الدولة على الوزراء والموظفين.

ومع اتساع الدول التي أصبحت إمبراطوريات مترامية الأطراف، أصبح الملك لا يستطيع الاعتماد على حكامها الأوائل فقام بتعيين حكام المقاطعات (ولاة المدن) لتمثيل الملك وتنفيذ أوامره وليس لهم حق التصرف في الأمور المركزية إلا باستشارة الملك....

للاستزادة أنظر ما يلي:

1- **ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الأول، تر. فؤاد أندروس، علي أدهم، دار الجيل، بيروت، د.ت.**
2- **ف. دياكوف، س. كوفاليف: الحضارات القديمة، ج. 1، تر. نسيم واكيم اليازجي، ط. 1، دار علاء الدين، دمشق، 2000.**
3- **رمضان عبده علي: تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته، ج. 1، ط. 1، دار نهضة الشرق، مصر، 2002.**
4- **عبد اللطيف أحمد علي: محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، طبع كريديه أخوان، بيروت، 1971.**
5- **محمد صادق صبور: موجز تطور الحضارات الإنسانية، ط. 1، دار الأمين، القاهرة، 1998.**
6- **حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضارته، بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.**
7- **محمد أو المحاسن عصفور: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1987.**
8- **ديلا بورت: بلاد ما بين النهرين، الحضارتان البابلية والآشورية، تر. محرم كمال، ط. 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.**